بسمة الجيوكندا

للكاتب الانكليزي ألدوس هكسلي

بقلم الأديب حسن حبشي

— ١ —

أقبلت خادمه الحسناء جانيت تعلن لمستر هتن قدوم سيدتها بقولها :

— ها هي ذي مس اسبنس قادمة على أثري يا سيدي

— شكراً لك

بهذه الإجابة المختصرة أجاب مستر (هَتْن) دون أن يلتفت لخادمه جانيت اسبنس التي ارتسمت على وجهها أمارات القبح الدّال على خبث الطبع ولؤم السريرة ، فلا جرم أن كان مستر هتن شديد العزوف عن التطلع إلى وجهها إلا إذا أرغمته الظروف على ذلك . وأغلق الباب ، فظل هتن وحيداً ، فأخذ يذرع أرجاء الغرفة جيئةً وذهاباً ، متأملاً بعينين نفاذتين ما تحويه من فخم المتاع وفاخر الرياش

كانت هناك صور من زخارف اليونان وأخرى من معارض الرومان ، ورسوم ملونة من أروع ماخطته يد التليان ؛ ينطق فنها بقيمتها وثمنها ؛ أما جانيت سبنس فقد كانت فتاة عاملة صريحة ، ذكية الفؤاد ، ذات ميل للفن وذوق رفيع ، وقد أكسبها ذلك معرفتها بفنان بارع ، ليس له من مأوى غير أفاريز الطرق ، رسم لها صورة رائعة ، ولم يتناول عليها أجراً سوى نصف جنيه ، على حين قد دفعت هي خمسة وثلاثين شلناً ثمناً للإطار وحده . لذلك طالما سمعها (هتن) تشيد بذكر هذه القصة . وكم كانت تغالي في ذكر تقليده رسومها الزيتية قائلة بملء فيها : « فنان من الطراز الأول لا يأويه غير الشارع ! » وكان الحرف الأول من كلمة « فنان » يبدو واضحاً جلياً أثناء كلامها . وإنه ليخيل إليك وأنت تسمعها تتحدث عنه ، أنها قد نالت حظاً من عظمته بنصف جنيه قدمته أجراً له على محاكاته صورتها ؛ ولم تكن تنسى أن تثني على حسن ذوقها وعمق بصيرتها ، فما أزهد الدهر في مثل هذا الفنان ! وما أسعد جانيت العزيزة بما نالته من الأيام !

وقف هتن أمام مرآة مستطيلة مائلاً إليها بصدره قليلا ، ليملأ نظره من ملامح وجهه ، ثم أمرّ أصبعاً لينا على شاربه الأصفر المجعد ، كأنما مرت عليه عشرون سنة ، بينما ظل شاربه حافظاً للونه ، لا يظهر فيه أثر للصلع إلا في مقدمة رأسه كأنها رأس « شكسبير » كما قال حينما رأى صقالها واتساعها فوق جبهته . وكان يقول « إن كثيراً من الناس في انتظار سؤالنا من غير سلطان عليهم ، وآخرون غيرهم على نحوهم فوق البحار ، فيالها من عظمة تزري بعظمة شكسبير حتى ولو كان معاصري اليوم ، بل

قل عظمة « ملتن » أليس كذلك ؟ ملتن ؟ لا بل عظمة عذراء المسيح ! »

وكان النساء يسمينه « فتى الرجولة » فلا عجب أن أحببْنَه ؛ وخاصة لأجل شاربه الأصفر وطباقه العطر

تبسم هتن ثانية ، وأخذ يتسلى بمداعبة نفسه قائلاً : « أترانى قد بلغتُ عظمة عذراء المسيح ؟ لا لا ! بل مسيح العذارى ! حسن جداً ! مسيح العذارى » وودّ إذْ ذاك لو ألقى حوله من يستمع إليه ثم قال : « وا أسفاه ! إن لم تقدّر شأنى جانييت ! »

وانتصب بعد ذلك قائماً ، ومسح رأسه بيده ، ثم عاد إلى تطوافه فى الغرفة متأففاً من المناظر الرومانية لخلوها من مناظر البهجة والسرور ؛ وفجأة حاك الشك فى صدره مخافة أن تكون جانييت واقفة على باب الغرفة تسمع ما يقول ، فنهض ميمماً شطر الباب ، حتى ليخيّل للرائى حين ذاك أن مستر هتن قادم على عمل إجرامى ، إذ أن صدور مثل هذه الحركات الصامتة كان يثير الريبة فى النفوس ؛ وتواردت الخواطر على ذهنه تباعاً مخافة أن تكون قد سمعت كل حديثه وشاهدت حركاته وما كان منه أمام المرآة ، ثم قال على حدة : « كلا إن هذا بعيد الوقوع » بيد أن هذا لم يذهب روعه

والتفت فرآها ، فذهب نحوها مبتسما ، مادّاً يده لمصافحتها قائلاً :

— أى جانييت ! لقد ملأتنى عجباً ودهشة

فتبسمت هى الأخرى أيضاً ابتسامة الجيوكوندا — وكان يدعوها بذلك فى لحظات الدعابة والمجون — وإذ كانت جانييت قد اعتقدت فى نفسها تلك الصفة ، فقد حاولت أن تحيا وفق حياة « ليوناردوفنشى » ، وكانت إذا صافحت مسترهتن ، ابتسمت له فى سكون وهدوء كما هو شأن الجيوكوندا . . . ثم عاد هتن يقول :

— آمل أن تكونى بخير كما أتوسم

وإذ ذاك لاحت دلائل الدهشة واضحةً على جبينها ... كان لها فم صغير تضمه إلى الأمام فيشبه المنقار الدقيق وله فتحة صغيرة فى وسطه ، كأنما هيئت للصفير فكان أشبه شىء بشباة القلم تُرى من الأمام ، ويعلو الفم أنف جميل كأنه سطر بديع مستقيم ، ركّبتْ أعلاه عينان رجراجتان ، وكان يخيل لناظرها أن بهما انتفاخاً واحتقاناً ، ولكنهما جميلتان أخاذتان ، يظللهما حاجبان مقوّسان كأنهما خطان أسودان ، يزيدان جمالها هيبة وجلالاً ، ويكسو رأسها شعر فاحم رومانىّ أشبه بحاجبيها ، فكأنها غادة رومانية

أخذ هتن فى حديثه فقال :

— أحسبنى قد ظفرت بمغنم فى طريقى إلى البيت ، وإنه ليحسن بى أن أعود إلى هنا ثانياً ، ثم أخذ يلوّح بيده مشيراً إلى أصص الزهر وأشعة الشمس وما تحت النوافذ من مروج سندسية ثم قال :

— أجل ! يحسن بى أن أعود إلى الريف بعد قضاء سحابة النهار فى المدينة

ثم أشارت إليه جانييت ليجلس على كرسى بجوارها ، ولكنه أبى وامتنع قائلاً :

— حقّاً إننى لا أستطيع الجلوس ، إذ أرانى مضطرًّا للعودة لأرى ما آل إليه حال « إميلى » لأنها كانت متوعكة المزاج بالأمس

لكنه جلس مواصلاً حديثه فقال :

— نعم إنها مصابة ببرد الكبد الذى كثيراً ما يعاودها ، ورأيى فى النساء ...

ثم سكت فجأة ، متصنعاً السعال رغبة منه فى إخفاء حقيقة سبقه لسانه بالتلميح إليها ، وكاد أن يزل فيذكرها ... كان يريد أن يقول : « إن النساء ضعيفات الجهاز الهضمى ، وأولى بهن ألا يتزوجن » بيد أن الإشارة كانت قاسية ، وما كان هذا الرأى صادراً منه عن عقيدة . ولكن جانييت كانت فتاة ذكية ، وتعرف ما بينه وبين إميلى زوجته ، ثم قال هتن :

— إن إميلى تودّ أن تعافى لتراك على مائدة الإفطار غداً ، فهل لك أن تأتى ؟ ثم تبسم قائلاً :

— وإنى لأوجه إليك الدعوة ، فاعلمى هذا

طأطأت جانييت رأسها خجلاً ، فانتهز «هتن» رؤية احمرار خدّيها ، وعد ذلك غُنماً جليلاً ، ثم مسح شاربه ، فقالت :

— فى نيتى الحضور لو كنت على ثقة بأن صحة « إميلى » ستمكنها من لقائنا

— أجل إن فى قدومك خيراً عليها بل علينا جميعاً ، وثلاثة فى الحياة الزوجية أفضل عِشْرَةً من اثنين

— صه ! ما أشبه قولك بعواء الكلاب !

حقاً ما كان أسرع هتن إلى العواء خصوصاً عند سماعه الكلمة الأخيرة ، فلشد ما كانت تثيره أكثر من أى كلمة أخرى . غير أنه خالف سنته هذه المرة ، فبدل أن يعوى أخذ يعارض قائلاً :

لا ! لا ! إنما أقول الصدق ولو كان مرّاً ، وكما تعلمين لا تأتى الحقيقة مطابقة للخيال فى كل حين ، وإن كان ذلك لا يضعف من ثقتى فى الخيال الذى أومن به بقوة ؛ وخاصة الخيال المترتب على عقد زوجية بضم خلين متآلفين ، وأكبر ظنى إذ ذاك أنه أقرب إلى التحقيق ، بل أؤكد ذلك

وقف « هتن » متأملاً فيها ينظر إليها نظر المستريب قائلاً لنفسه :

— عذراء فى السادسة والثلاثين ولا تزال غضة حافظة لجمالها ! لا بد من شىء خفىّ يحوم حولها

غير أن جانييت لم تجب على ذلك بحرف واحد ، بل ظلّت مبتسمة ، وكثيراً ما كانت ابتسامتها الصامتة تملأ صدره غيظاً ، ثم نهض قائماً وقال :

— الآن حان وقت الذهاب ، فوداعاً أيتها الجيوكوندا الساحرة !

بيد أن الابتسامة استحالت دهشة أطلت من فتحة ضيقة من بين شفتيها ، حينذاك انحنى هتن انحناءة فنية ثم قبّل أناملها المبسوطة ، وكانت هذه أول مرة نال فيها ذلك الغنم العظيم الذى لم يقابل من ناحيتها بامتعاض ، مما شجعه على أن يقول لها :

— إنى لأنظر إلى الغد بأمل فيك كبير

— أحقاً ما تقول ؟

ولم يكن جوابه حينذاك إلا أن طبع على يدها قبلة أخرى ، ثم استدار ناحية الباب ، فرافقته إليه سائلة إياه : أين عربتك ؟

— تركتها عند مبدأ الطريق

— سأصحبك إليها

— لا لا ! ليس لك أن تأتى شيئاً من ذلك ، وأصارحك القول إنى أحتج على ذلك . لكنها فاجأته ببسمة الجيوكوندا ، ثم عارضته فى كلامه قائلة : « لقد عزمت على المجىء » فرفع هتن إذ ذاك

يده مظهراً عدم رضاه ، وبحركة غريبة قبّل يدها قبلة الوداع ثم شرع يجرى فى الطريق على أطراف أصابعه بخطوات واسعة أشبه بالصبيان ، وكم كان معجباً بهذه المشية الغريبة ، لكن سره أن المرحلة ليست طويلة ، وعند آخر خطوة ، وقبل أن يتوارى عند منعطف الطريق ، وقبل أن يتوارى البيت عن أنظاره التفت خلفه ، فأبصر جانييت لما تزل واقفة على الدّرج ، وابتسامتها لم تزايل شفتيها ، فأشار إليها إشارة الوداع ، وبعث إليها مع الريح قبلة رن صداها قوياً ، ثم عاد إلى وثبه العجيب . وما لبث أن دار حول آخر دوحة عالية ، وترك الوثب جانباً وعاد يمشى كعادته ، وتناول منديله ومسح به رقبته وياقته وهو يقول فى نفسه : « ما أعظم هذا الجهل ، وأشد شينه ! أما على الأرض شبيه لجانييت العزيزة ؟ أجل ليس عليها إلاّ هى

والحق أنه كان أعظم جهلاً ، حينما كان يحس بجهله ، ويأبى إلاّ أن يمعنَ فيه

وانتهى إلى حيث تقف عربته الفاخرة ، فقال للسائق وقد أخذ مكانه فى العربة « هيا إلى البيت رأساً يا مستر ناب ، وقف عند كل تقاطع كما هى العادة » ثم جذب باب العربة وأقبل على الوَحشة التى كانت تعمّ داخلها

ولكن ما لبث أن سمع من الداخل صوتاً رقيقاً واضحاً يقول له :

— ماذا أيها الدب العظيم ؟ كم لبثت من عمرك؟

غير أن مخارج الحروف لم تكن تصل إلى سمعه جيداً ، فانحنى بجسمه الضخم ، واتخذ مكانه فى العربة كما يفعل الحيوان حين يباغت فيهرول إلى جحره ، وما إن أغلق الباب وأخذت العربة تشق طريقها حتى قال :

— تسألينى كم عمرى ؟ لعلك تنتقضين منه لو وجدته كثيراً !

ثم أسند ظهره إلى مقعد منخفض وقد احتوشه الدفء من كل جانب ، وأطل بجانبه رأس صغير ذو وجه باش يتهدّد تهدّد السالم المطمئن ويقول : « ما أعظمك من دب ! » فالتفت هتن بنفس مُلؤها الانفعال إلى ذلك الوجه الصغير الذى يجاوره ويحاوره ، ثم أمرّ أصابعه خلال خصلات من الشعر المعطر قائلاً :

— أتعلمين يا دوريس أنك أشبه شىء بصورة لويز دى كروَاىْ ؟

— ومن هي لويز دى كروای هذه ؟ وما شأنها ؟

وحينذاك غمر (هتن) وجه الفتاة دوريس بسيل من القبل ، والسيارة مجدة فى اختراق طريقها ولاح لهما ظهر السائق كسد حجرى أو ظهر تمثال وإذ ذاك قالت لهتن :

— أسألك ألاّ تمسنى بيديك فإنهما يحدثان فى نفسى تأثيرات كهربائية . فزاد ذلك من إحساسه وشعوره ، ثم قال وقد جذبه صوتها الحنون وجسدها الأملس :

— وهل حدث فى حياة امرئ أن اكتشف ما فى جسمه ؟ إن الكهربائية ليست فىّ بل فيك أنت ... آه ... دوريس ... دوريس ...

وكان يعطرها بقبلاته الحارّة ، وغمرت قبلاته عنقها الفضى الجميل الذى أسلمته إياه فى استسلام وسكون ، ثم تذكر حينذاك دودة البحر ذات الفراء الحريرى الخاص ؛ ثم أكد لنفسه أنه لابد ذاهب إلى نابلى ليرى الحيوانات ذات الأصداف العجيبة الخلقة ، فقالت له :

— أيها الدبّ العظيم المغرم بعلم الحيوان . إنها

حيوانات برية فما أعجب نكاتك ، لقد عظم سروري الآن

— وإني لجد مسرور مثلك . أليس كذلك ؟

— بودي لو أعرف الحقيقة ، أخبرني أحقاً ترى ذلك أم باطلاً ؟

— واهاً لك ياعزيزتي ، إن طلبك هذا عسير . لقد قضيت ثلاثين عاماً في البحث عنه ولا أزال

— إنما أحب الجدّ والصراحة أيها الدب العظيم ، أود لو أعرف صحة هذا الأمر فإن يكن صواباً فسأبقى معك ينعم كلانا بحب الآخر ، ويكون في ذلك ما يبعث فيّ تأثيرك الكهربائي عند ما تمسني يداك

— تريدين الحق ؟ لك ما شئت ، وإنه لمن الخير أن توجد فيك تأثيرات كهربائية فوق ما عرفنا في الطبائع البشرية . إذن دونك كتابات « فرويد » إقرأيها وستجدين أن ذلك خزعبلات شيطانية .

— واهاً لك ! لقد أحجمت عن مساعدتي ، فما يمنعك من سلوك سبيل الجدّ ؟ هل سبب ذلك أنك تعلم ما أكون فيه من الشقاء متى عرفت أن ذلك غير صحيح ؟ لعلك تعلم أن هناك جهنم وما شاكل ذلك من معتقدات ، أما أنا فقد حرت في أمري ، وأحياناً أرى أنه خليق بي أن أدع حبك جانبا

— وهل يسعك ذلك ؟

— لا ، لا أستطيع ذلك كما تعلم ، غير أنه في مكنتي أن أفرّ من أمامك وأخفي نفسي عنك ، وأغلق دونها الأبواب ، وأرغمها ألاّ تعود إليك

— فضمها إلى صدره وقال : ما أعجب شأنك أيها الصغيرة الغافلة !!

— آه ياعزيزي ، أود أن يكون ما أسألك عنه صحيحاً وألا يكون هناك ما يكدر خاطري وقتاً ما

وإذ ذاك أخذته الشفقة على هذه المخلوقة وتأثرت نفسه لهذه المسكينة ، ووضع خدّه على شعرها . وهكذا التفّ بعضهما ببعض ، بينما العربة آخذة في قطع الطريق ، وشقّ غباره ثم وقفت بهما عند أحد الأعمدة وترجلت دوريس ، أما هو فقد بقي في مكانه وودّعها قائلاً :

— في رعاية الله أيتها العزيزة !!

ثم انطلقت العربة بكل قوتها ، حتى اختفت في منعطف الطريق تاركة وراءها دوريس الجميلة ، خائرة القوى مشتتة الفكر من أثر رقة تلك القبل ، والشعور الكهربائي الساري فيها من أثر مسّ يديه القويتين . ثم أخذت تتنفس الصعداء لتروّح عن نفسها عناء الفكر ، حتى إذا استجمعت قواها أخذت طريقها إلى البيت وقد سارت نصف ميل وهي تفكر في حيلة كاذبة تنفعها وتدفع بها أسئلة أهل المنزل عن سرّ تأخرها حتى ذلك الوقت

أما هتن فقد ظل وحيداً في العربة

— ٢ —

كان مستر (هتن) جالساً على أريكة في صالون السيدات يلعب الورق . وبالرغم من أن حرارة الجو كانت شديدة في مساء ذلك اليوم من أيام يوليو فقد سجر التنور بنار متأججة وتمدّد أمام الموقد كلب « بوميراني » خدرته الحرارة وأخله سوء الهضم والمعدة المكتظة ، فأغمض ... وشعر مستر هتن بارتفاع الحرارة فقال في تأفف وضجر

— أليس الحر شديداً هنا ؟

فأجابه صوت ضعيف النبرات لينها ، هو صوت زوجته « إميلى » تقول :

— لقد علمتَ أنه لا بد لى من مكان دافىء ، حتى تذهب الرعدة التى تسرى فى أوصال جسمى والرعشة التى ترتجف تحتها

— آمل أن تكونى أحسن صحة هذه الليلة !

— لقد أخذت العافية تدب قليلا فى جسدى ، بيْد أن الشك ما زال يقض مضجعى . وصمت كل منهما وانتصب (هتن) واقفاً على قدميه ، مسنداً ظهره إلى مظلة فوق الموقد ، ثم نظر إلى الكلب الجاثم عند قدميه ، وأخذ يقلّبه ويداعبه بمقدم حذائه ، ويمسح صدره الأرقط وبطنه ، ثم عاد إلى اللعب . وإذ كاد ينتصر على إميلى أخذت هذه ورقةً فانحاز النصر إلى جانبها بعد أن كاد يولّى عنها ثم قالت :

— يظن الدكتور لبارد أنه من المحتم علىّ أن أذهب إلى (اللاَندرود ويلز) هذ الصيف !

— حسن ! فلتذهبى يا عزيزتى كيفما شئتِ

ثم أخذ مستر هتن يفكّر فى حوادث المساء وكيف قطع الطريق هو ودوريس وقد تركا العربة فى انتظارهما عند الغابة ذات الأشجار الكثيفة ؛ ثم قالت إميلى :

— الآن سأشرب جرعة من الماء لأطفىء اللهب المتّقد فى كبدى وإن كان الطبيب يحتم علىّ فى تقريره أن أشرب الدواء ، وإجراء بعض العلاجات الكهربائية أيضاً . وكانت إميلى ممسكة بقبعتها ، ومن ثم أخذت تجري خلف أربع فراشات زرق ، كنّ يرفرفن فوق بعض الزهور بحالة تشبه اهتزاز اللهب الأزرق ، وإن كان اللهب يفنى ؛ حتى إذا أمسكتها ضحكت وصاحت كما يصيح الأطفال سروراً ، ثم قال هتن لأميلى :

— أؤكد لك أن صحتك تتحسن يا عزيزتى

— ولكنى فى شك من مجيئك معي يا صديقى

— إنك تعلمين أنى ذاهب إلى اسكتلندا فى أواخر هذا الشهر !

وأخذ هتن ينظر إليها نظرة المؤمل المستعطف ، ولكنها بدّدت هذا السكون بقولها :

— إن التفكير فى مثل هذه الرحلة أشبه بالحلم الرّفاف يهوّم بالأذهان وهى فى سكرة النعاس وذهوله . ولست على ثقة مما إذا كان فى وسعى أن أقوم بها ، ولا يخفى عليك أنى لا أستطيع النوم فى الفنادق فضلاً عما أحمل من متاع ، وما أتكبد من آلام ... الحق أنى لا أقوى على السفر وحدى

— لكنك لن تكونى بمفردك ، إذ سوف تصحبك وصيفتك !

ثم صمت وتذكر كيف أنه تزوجها صحيحة فأصبحت مريضة ، وهكذا أخذت النسوة المريضات يحللن محل المتعافيات ، مما حدا به أن يتذكر أشعة الشمس الجميلة والفتاة اللعوب ، وما تبدلت إليه حالها حتى صارت محمومة قابعة فى غرفتها تئن وتتضجّر ثم قالت إميلي :

— أغلب ظنى أنى لا أستطيع الذهاب

— ولكن إطاعة الطبيب فرض واجب ، ولعلّ الانتقال يكسبك الصحة والنقاهة ؟

— ما أبعد ذلك عن ظنى ! !

— إنها كلمة الطبيب (لِبارْد) وهو عليم بما يقول !

— لا ! لا أقوى على تحمل ذلك فإنى ضعيفة

جداً ولست أحتمل الذهاب وحدى .

— إن كل ما تقولين لغو لا جدوى وراءه ، ولا بد من تحمل هذه المتاعب إن كان ثم متاعب

— خير لى أن أبقى هنا آمنة مطمئنة حتى أموت

حينئذ تأوّه هتن تأوّهاً مراً وتضرع قائلاً :

— أى ربّ رحماك رفقاً بنا وسمعاً لشكاتنا مناً منك . ما حيلة المرء إزاء ما تأتى به الظروف ؟ ثم هزّ كتفيه وغادر الغرفة

ولكنه أخذ يحاسب نفسه مخافة أن يكون قد أساء التصرف ، أو ندّت منه كلمات جارحة لشعورها ؛ فقد كان فى إبان شبابه لا يشعر بعطف أو رحمة نحو الضعفاء والمرضى وذوى العاهات فحسب ، بل كان يكرههم ويعافهم ، وكان ذلك نتيجة ذهابه ذات مرة فى رحلة إلى الطرف الشرقى عاد بعدها مملوءا بكراهية عميقة لا يمكن اقتلاعها . وبالرغم من أنه كان يعلم بادئ ذى بدء أن هذا الأمر جدّ عسير ، إلا أنه أخذ بمضى الزمن يطمئن إليه ، وترتاح له نفسه ، فأصبح لا يشعر بوخز الضمير ، بل غدا ذلك سجيّةً فيه وطبعاً . . . لقد كانت (إميلى) صحيحة حسناء عند اقترانه بها ، وقد بادلها الحب إذ ذاك ، لكن ما باله الآن يعد نفسه غير مسؤول عما آل إليه أمرها ؟ . تناول هتن الغداء بمفرده فأثر الجوّ فى نفسه ، وإذا بثورته تنقلب هدوءاً أو ما هو أشبه بالهدوء ، ولكى يكفّر عن التهور الذى بدر منه دخل غرفة زوجته واستأذنها ، وكانت دلائل التوبة والندم واضحةً على محياه وتكاد تنطق بها عيناه ، وسألها أن يقرأ لها فأذنت شاكرة له طيب نفسه ، فاقترح أن يقرأ لها بالفرنسية فرضيت وقالت له : « تريد التحدث إلىّ بالفرنسية ؟ ما أحبها إلىّ ! » وكانت تفخر بأنها لغة « راسين » التى تحبها كما تحب طعام الفاصوليا

حينئذ أسرع (هتن) إلى المكتبة وعاد يحمل مجلداً أصفر وشرع يقرأ لها فيه . ولقد أولى النطق ومخارج الأصوات كل عنايته واهتمامه حتى كان موضع الاعجاب وحتى كان لحسن نطقه أثر بالغ فى إلباس القصة التى كان يقرؤها ثوباً رائعاً . وما أتم خمس عشرة صفحة حتى طن فى أذنه صوت كأنه حشرجة النفس ، فالتفت صوب زوجته فرآها قد أسلمت نفسها للسبات العميق ، فلبث برهة يرقب ذلك الوجه المسجّى وقد عرته دهشة خفيفة ... لقد كانت جميلة فى فجر حياتها ، فلم يكن ليتطلّع إليها إلا وهو يشعر بهالة من الحسن الرفاف تحيط بهذا الجمال الفاتن ، أما الآن فقد تبدل كل شىء ، ودب المرض فى أوصالها حتى هزلت وصارت أشبه بالموتى ، وتجعد جلدها الأملس فوق عظام خدها البارزة وأرنبة أنفها المحدودب ، وغارت عيناها فى محاجرها العميقة ، وحينذاك ألقى الصباح ضوءه على جبينها الشاحب فتبين (هتن) ما فيه من تجاعيد وأخاديد ، حتى لا يشك من رآه فى أنه وجه ميت ، فأخذته حينذاك رعدة تمشت فى جسده ، وخطا على أطراف أصابعه وغادر الغرفة

وفى اليوم التالى نزل هتن إلى غرفة الطعام حيث كانت زوجته قد استردت بعض صحتها المنهوكة إثر نوبة أصابتها فى الليل ، اشتد فيها خفقان القلب . تحملت إميلى رغم قوتها ومضت تشترك فى إكرام ضيفتها « جانييت اسبنس » ، وسمت اهتمامها بأمر (اللاندورد ويلز) بنفس ملؤها الشفقة ، غير أن ما قالته قد سمع

مراراً حتى بحته الأسماع وتعودته ، ثم اتكأت بصدرها إلى الأمام ، واندفعت فى الكلام كأنما هى قذيفة انطلقت ، وكأنها استحالت إلى آلة أوتوماتيكية تمطر من أمامها وابلاً من الكلمات الدالة على الرأفة وجاراها هتن ، بيد أنه كان يستعمل عبارات أدبية أو فلسفية من مقولات مترلنك ومسز بزانت وبرجسن ، ووليام جيمس ، وكأن قذف الكلمات أصبح نوعاً من الدواء . وأخذت مسز (هتن) تتكلم عن الأرق وبالغت فى شأن العقاقير ومزاياها الطبية ، وكان حديثها أشبه بزهرة تستقبل الشمس

أخذ هتن ينظر فى سكون ودعة ، كأن منظر جانيت سبنس قد بعث فيه دهشة قوية ، ولم يكن الرجل ذا خيال خصب ليصور لنفسه أن كل وجه يختفي تحته فناً من النقد لقياس جمال الأشياء وغرابتها ، حتى إن حديث كل امرأة عنده وإن قل شبيه ببخار معقود فوق خليج مجهول ، فهذه زوجته ودوريس مثلا لا يزيد مظهرها شيئاً على باطنهما ؛ أما جانيت اسبنس فقد كانت من نوع آخر ، فهنا يتأكد الناظر أن خلف تلك الحواجب الرومانية وبسمة الجيوكوندا هذه وجهاً غريباً . ولعل السؤال الوحيد هو ما ماهيّة ذلك السر الذى لم يستطع هتن كشف الستار عنه ؟

ثم دار الحديث بين مسز هتن وبين جانيت التي قالت لها :

— قد لا تذهبين إلى «اللاندرود» بعد ؛ ومتى تحسنت صحتك عاجلاً فإن الطبيب لبارد يرجع فى طلبه ؟

— هذا هو رجائى الوحيد ، وإنى لأحس بالعافية اليوم تدب فى أوصالى المنهوكة

وهنا تأثر المستر « هتن » حيث كان في حاجة ملحة إلى مثل هذه الشفقة التى كان فقدها سبباً فى تضعضع صحتها يوماً بعد يوم ، إلا أنه أخذ يحدث نفسه بأن كل ما حدث إنما هو إحساس بالتقدم وليس تقدماً حقيقيًّا . إذ الشفقة لا تداوى الكبد المريضة ولا القلب الضعيف

عرف هتن أن زوجته خالفت أمر الطبيب ، فالتهمت بعضاً من الزبيب فقال لها :

— لو أنى كنتُ إياك ما تناولتُ الزبيب بعد أن حرم الطبيب كل ما له بشرة سميكة وبذور !!

— ولكنى أميل إليه وأشعر اليوم بتقدم فى صحتى

فقالت جانيت : لا تتعسّف في حكمك واتئد فى إسرافك !

ثم أجالت ناظريها فى هتن وزوجته وقالت :

— دعها تأكل ما تشاء وتشتهى ، فإن ذلك يزيدها قوة

فقالت إميلى : « شكراً لك يا عزيزتى » ، ثم نهضت لتتناول بعض الزبيب المغلى . فقال هتن :

— إذن لا تلومينى على شىء إن مسك ما لا أحب من جراء ذلك !

— وهل لُمتكَ على شىء من قبل ... ؟

— لأنك غير واجدة مغمزاً تلومينى عليه ، لأنى زوج وفىّ

أخذ الجميع مجلسهم فى الحديقة بعد تناول الغداء ، وهم يصوّبون أنظارهم فى هذه المروج الفسيحة المحلّلة بالزنبق والأزهار المتلألئة بنورها المعدنى ، وكان دفء الهواء المعطر قد أدخل شيئاً من السرور على قلب مستر هتن ، فتنفس فى قوة ثم قال :

— ما أبهج الحياة لو كنا خالدين !

فرفعت زوجته يدها إلى الشمس ثم قالت :

— سنخلد لو كان فيها ثم خلود !

وإذ ذاك أحضرت الخادم القهوة فى أباريق فضية ، وفناجين بنفسجية ، ورتبتها على المنضدة بالقرب منهم فنادتها مسز هتن قائلة :

— أين الدواء يا كلارا ؟ أسرعى إلىّ به فى زجاجته البيضاء

فقال هتن : وسأذهب لأحضر لفافة من التبغ

ثم أسرع إلى داخل المنزل . وبينا هو يعبر الدهليز التفت فجأة إلى الخلف ، فأبصر الخادمة تمشى فى الحديقة ، وزوجته متكئة على مقعدها منهمكة فى فتح فدام قارورتها . أما جانيت اسبنس فقد كانت مستندة على المنضدة تصب القهوة فسألت مسز هتن :

— أتحبين السكر يا إميلى كثيراً ؟

— نعم ! شكراً لك يا عزيزتى : أكثرى منه لأنى سأشربها بعد الدواء ، كى تذهب بغضاضته

ثم أسندت رأسها إلى الوراء ، وأمالت قبعتها على وجهها لتخفى عن نظرها رؤية الشمس والسماء ووقفت خلفها جانيت ثم قالت لها :

— لقد وضعت لك ثلاث ملاعق ستذهب حتماً بمرارة الدواء . والآن ها هوذا هتن قد أحضره معه

أجل لقد ظهر هتن يحمل زجاجة خمر ملأى بشراب قاتم ناوله لزوجته قائلاً :

— ما أطيب رائحتها !

— وذلك أحسن ما فيها

ثم جرعته مرّة واحدة اقشعرت بعدها وقد ارتسمت أمارات العبوسة على وجهها وقالت :

أفٍّ له ما أبشعه من دواء ! إلىّ بالقهوة كى تذهب غضاضته

فأعطتها جانيت ما طلبت وأخذت ترشف منه نهلات كبيرة وهي تقول لجانيت

— لقد صيّرته كالشراب ولكن لا بأس فذلك خير ما يكون عقب مثل هذا الدواء الشديد

وفى منتصف الساعة الرابعة أحست المريضة بشىء من التعب يخدّر أعصابها ، ولم تكن تشعر بمثله من قبل ؛ ومن ثم يممت شطر حجرتها لتنام وترتاح جسدها . وكاد هتن أن يقول شيئاً عن الزبيب ولكنه تمالك نفسه وغيّر موضوع حديثه بقوله لها :

— ما أسرع تأثيره ! ألم أخبرك بذلك من قبل؟

ثم أخذ بيدها ليساعدها على الدخول وحاول أن يطمئن خاطرها المضطرب ونفسها المكدودة بقوله:

— ستشعرين بالصحة متى استرحت ، ولعلى لا أعود إليك إلا بعد الظهر وقد عادت إليك صحتك وراحتك :

— وإلام تذهب ؟

— سأذهب إلى جونسن هذا المساء كما تعلمين لنتحدث فى ذكرى الحرب

— بودّي ألاّ تذهب !

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

— أما تستطيع البقاء بجانبي اليوم فإنى أستشعر الوحدة !

— وما الحيلة يا عزيزتى وقد واعدته منذ أسابيع ، ولكنى سأمضي الآن لأبحث عن جانيت

فقبلها بين عينيها ، وخرج إلى الحديقة حيث استقبلته جانيت بشوق ولهفة ثم قالت :

— إن زوجتك فى شدة المرض !

— ولكنها ستسر كثيراً بحضورك

— إن ذلك الدواء مزعج فقد جعلها فى مثل هذه الحال ، وقد ضعفت قوة هضمها . حقًّا إن معدتها قد اضطربت ، وأخشى أن يحدث شىء ما !

— من يدرى ؟ ربما لم يفحصها لبارد تماماً !

ثم فتح باب الحديقة الخارجى المطل على الطريق حيث كانت عربة جانيت فى انتظارها تستقلها فى العودة إلى منزلها ثم قالت :

— إن لبارد طبيب قروىٌّ وخير لك أن تستشير طبيباً إخصائياً

— أراك تكبرين من شأن الاخصائيين

فرفعت جانيت يدها محتجة وقالت :

— إن حالة زوجتك قد بلغت حداً من الخطورة يستوجب الشفقة والرثاء ، وإنى لجادَّة فيما أقول وأخشى أن يحدث ما ليس فى الحسبان ؟

فأمسك هتن بيدها وأدخلها العربة ، وأخذ السائق مكانه فيها ، وتأهبت للانطلاق . ولم يكن هتن يرغب فى أن يطيل الحديث معها فسألها فى رقة :

— هل تسمحين لى أن آمره بالسير ؟

فمالت نحوه وابتسمت له بسمة الجيوكوندا فقال لها :

— تذكرى أنى فى انتظارك لتعودى إلى رؤيتى ثانية عن قريب

على أنه قد تضجر وإن يكن قد لزم حدود الأدب . وما إن تحركت العربة حتى ودعها بيده ، وسره أن يبقى وحيداً

* * *

مضت بضع دقائق انطلق بعدها « هتن » إلى حيث كانت تنتظره « دوريس » عند منعطف الطريق ، فتناولا الغداء معاً فى فندق يبعد عن البيت عشرين ميلا . ولقد جمع الغداء بين الرداءة والاسراف فقد طُهِىَ فى فندق قروى أعدل سائق العربات . وإن يكن قد ساء هتن فقد سر « دوريس » التى لم يكن الكدر يعرف إليها سبيلا ، وطلب هتن زجاجة من الشمبانيا . ولما أخذا طريقهما إلى البيت كانت دوريس على حال عظيمة من النشوة ، وكان الجو أدكن ، ولكن الناظر إلى الأمام كان يرى شبح السائق الساكن ، وشريطاً من الأرض تنيره أضواء المصابيح الأمامية للسيارة

بلغ هتن منزله وقد قاربت الساعة أن تدق مؤذنة بانتصاف الليل ، فلقيه الطبيب لبارد فى بهو البيت وكان رجلا قصير القامة كريم الكفَّيْن ، حسن الصورة ، أشبه بالنساء ، واسع العينين أكحلهما . وكان يقضى وقتاً طويلاً بجانب مرضاه يخفف عنهم آلامهم بلطفه ورقته ، مما يبعث السرور إلى النفوس ، وإن كانت مسحة الاتزان لا تفارقه أبداً . سأل هتن الطبيب :

— أى دكتور لبارد ! أراك هنا ! أما زالت إميلى مريضة ؟

— لقد بحثنا عنك طويلا فى بيت جونس فلم يقف لك أحد على خبر هناك

— بلى ، لم أكن هناك إذ حال بينى وبين الذهاب إليه قاهر

ثم قال فى نفسه : « ليس هناك أشد من أن يختبىء الانسان خلف ستار من الكذب »

فقال الطبيب : لقد كانت زوجك عطشى متلهفة إلى رؤيتك

فقال هتن وقد اتجه ناحية السلم

— الآن لا مانع من الذهاب إليها

فوضع الطبيب يده على كتف هتن قائلا : رويدك تأخرك !

فأراد هتن أن يتخذ المعارضة سلاحاً يدحض به أقواله فقال : « وهل ترانى تأخرت » ثم مد يده إلى جيبه بحجة أنه يريد إخراج ساعة ولكنه أرجعها خالية

— لقد قضت مسز هتن نحبها قبل ذلك بنصف ساعة

بذلك نطق الطبيب الذى استمر صوته على لينه ولم يفارق الأسى عينيه ، ثم أخذ يقص خبر الموت وحالته كأنه يتكلم عن لعبة « الكريكت ماتش » وذكر أن شتى الحيل قد وقفت مكتوفة الذراعين لا تجدى أمام القدر المحتوم وقد انقطع كل أمل . كل ذلك وهتن لم ينقطع عن التفكير وتذكر كلمات جانيت اسبنس إذ قالت : « لابد من حصول شىء فى أى لحظة » ثم قال على حدة : « حقاً ، لقد كانت صادقة فى قولها ونبوءتها »

ثم سأل هتن الطبيب قائلاً : ما الذي حدث وماذا كان السبب ؟

فأخذ الطبيب يفصل الحادث قائلاً :

— انها سكتة قلبية نتجت عن نوبة شديدة عقب تناول بعض الأطعمة المحذورة

— كالزبيب مثلا ؟

— شىء أشبه بهذا أو هو نفسه ، وقد كانت وطأته على القلب قاسية ، وكان من جرائه تلك النوبة الخطيرة ؛ ولعل بعض الأجهزة قد تعطلت فى الداخل وعلى كل حال فقد انقضى الأمر واستراحت فلن تحس ألماً بعد

— ٣ —

« يا للحسرة ! وافق يوم تشييع الجنازة يوم مباراة إتن وهارو »

هكذا قال الجنرال « جريجو » وكان واقفاً تحت مظلة الكنيسة ممسكاً قبعته الطويلة بيمناه ، ومجففاً العرق من جبينه ومحياه

سمع هتن ذلك القول فتمالك شعوره على الرغم منه بعد أن كاد يمس الرجل بأذى فى بدنه ، وقد كان بوده أن يوجه إليه لكمة قوية فى وجهه الأحمر العريض ثم قال :

— أيها الحيوان الضخم المجعد الوجه ، أليس للميت عندك حرمة ؟ أما تستحى من أحد ؟

ولقد كان الحق فى جانب « هتن » فلم يجب الآخر بكلمة ما ؛ أما مستر هتن فقد ألقى بنفسه بجانب القبر يتأوه ويتنهد ويبكى زوجته قائلاً :

— إميلى ! أيتها المسكينة ، لقد آب الجميع يا إميلى إلى دورهم ونسوك ، وعادت إلى أوجههم بشاشتها وطلاقتها ، أما أنت فقد ثويت فى قاع حفرة على بعد سبعة أقدام بينما « جريجو » واقف يشكو سوء حظه لأنه لم يشهد المباراة ! !

أخذ هتن بعد أن هال التراب على قبرها وسواه يحدق فى الجموع السوداء التى حوله والتى أخذت تغادر ساحة الكنيسة ، إلى موقف العربات والسيارات ، وبالرغم مما كانت تتحلى به الأرض حينئذ من حشائش نضرة وأزهار متلألئة وأوراق لامعة ، فقد كانت دلائل الأسى مرتسمة على أوجه الجميع ، وشملهم الحزن . ولقد سرى عن

نفسه بعض الشجن أن الفناء حتم على الجميع

جلس (هتن) فى مكتبه ذلك المساء يطالع حياة « ملتن » ولم يكن هناك من داع يحمله على اختيار حياة ملتن لذاتها ، بل ان ذلك الكتاب كان أول كتاب تناولته يده . وما إن فرغ منها عند منتصف الليل ، حتى نهض من كرسيه وأغلق النوافذ وغادر المكتبة إلى الردهة حيث كان الليل صافياً ساكناً . فأخذ يصعد نظره فى النجوم يتأملها ويتأمل ما بينها من فضاء ، ثم يرد طرفه ناحية الأزهار الباهتة ، ويسرح عينيه فيما وراء ذلك من فضاء لا يبدد وحشته غير القمر .

أخذ بعد ذلك يفكر فى قوة مضطربة فيقول :

« ها هى ذى النجوم ، وها هو ملتن ، بل ها هو الرجل الذى شابه الليل ونجومه فما أعظم نبله ! ولكن أحقاً أن هناك فرقاً بين النبيل وغير النبيل ؟.. ملتن .. والنجوم .. والموت .. والروح والجسم .. والأرض والسماء ... لعل فى هذه بعض الشيء من النبل ... ما الذى ناله ملتن ؟ لا شيء . وأنا ... ؟ أنا ! ... أجل ! لا شيء غير صدر « دوريس » الصغير البض »

وتواردت الخواطر المبهمة على خياله سراعاً كأنما تستعرضها ذاكرته : ترى أيها أعظم شأناً : ملتن أم النجوم ؟ أم الموت ؟ أم إميلى فى قبرها ؟ أم دوريس ؟ أم مستر هتن نفسه ؟ لا شك أنه أعظم الجميع !

أف له ! لقد صار أنانى الطبع ، لكل شيء — قل أو كثر — سلطان على نفسه . وفى لحظة سكون صاح قائلاً « لقد عزمت . لقد عزمت » غير أن صوته كان يذهب فى ظلام الليل البهيم كصرخة فى واد ، ولكن خيل إليه أنه أقسم يميناً عظيمة ، يحق للآلهة أن ترتبط بها ... « لقد عزمت ! ... لقد عزمت ... ! لقد مرت بنا أعياد رأس السنة والميلاد والأعياد المقدسة كما مرت بى تلك التوبة الكبرى عن الخلاعة والمجون ، ومثل هاتيك الأقسام »

لقد ذهب كل ذلك بدداً ، حتى اليمين تلاشت كما يتلاشى الدخان فى آفاق الجو ، وصار كأن لم يكن . غير أن ما كان حوله إذ ذاك كان يوحى بالرهبة ، فآلى على نفسه أن يبدل منهاج سلوكه فى المستقبل ، فيحيا حياة الرجل العامل العاقل ، ويكبح جماح نفسه الثائرة ، ويوجهها إلى طرق الخير بعد أن ظل طويلا يضلل النسوة ويخدعهن بعبارات الحب الموهوم والأمل الكاذب ، ولكن هاهوذا قد عزم ولابد من العمل .

فكان يقضى الصباح فى تفقد أعماله الزراعية فيركب مع رئيس العمال ، ويدور حول الأرض ليرى سير العمل فيها وما اتبع من أحدث الطرق الزراعية وخاصة فى مخازن الحبوب والأسمدة الصناعية والحصاد ونحو ذلك ، وينفق باقي اليوم فى المطالعة الجدية ، إذ كان قد اعتزم منذ ردح طويل أن يؤلف كتاباً عن « تأثير الأمراض فى المدينة »

ذهب هتن بعد ذلك إلى فراشه خاشعاً تملأ التوبة نفسه ، وتهيمن على جوانحه ، وتسيطر على كل جارحة فيه ، وخيل إليه أن الفضيلة قد اتخذت سبيلها إلى نفسه فنام ثمانى ساعات ، ثم استيقظ فإذا الشمس قد شعشع نورها ، وكست الأفق ضياء صافياً ، بيد أنه لم يجد فى نفسه أثراً لتلك الدوافع التى أحس بها مساء بل عاد فى الصباح إلى حياته المرحة ... حياة الخديعة باسم الحب ...

وتلاشت العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه ، فكأن ملتن ، وكأن الموت قد تغيرا فى ضوء النهار عما كانا عليه فى ظلام الليل . أما النجوم فقد حجبتها الشمس ، وأما عزمه فقد كان يرى شبحه فى ضوء النهار كما يراه فى حجب الدجى ، لذلك امتطى صهوة حصانه بعد أن تناول طعام الإفطار وأخذ يطوف مع رئيس عماله . وعند الظهيرة تناول وجبة الغداء ثم جلس يقرأ كتاب « ثكديدس » عن « الطاعون فى أثينا » وفى المساء وضع بعض مذكرات عن الملاريا فى جنوب إيطاليا . وعند ما شرع فى خلع ملابسه تذكر أن هناك قصة طريفة فى كتاب « إسكلتولد » عن الوباء الأسود ، فعزم على أن يكتب عنها فصلاً إن عثر على قلم رصاص

مرت خمسة أيام من حياته الجديدة ؛ وفى اليوم السادس عثر هتن بين خطاباته على رسالة قد كتب عنوانها بخط بين بين ، عرف منه أنه من لدن « دوريس » ففضه وشرع يتلوه ، فوجد كلمات لا ترمى إلى جمع واحد ، إلاّ أنه استشف من قولها وجود حالة تشبه الحال التى ماتت بها زوجته ، فكان فى ذلك ما أزعجه ، وحدا به إلى التنهد ؛ غير أنه تمالك شعوره ، واستعاد إحساسه ، وتابع قراءته ، وهذا نص رسالتها :

« أجل ! إن الموت شىء مرعب ، غير أنى لا أفكر فيه ما دمت منه بنجوة . أما إذا حل مثل ذلك الأمر ، أو ألم بي مرض ، أو أحاط بى كدر ، فترانى لا أتمالك نفسي من التفكير فيه كأنه قريب منى ، وأستعيد فى خيالى كل ما قدّمت يداى من إثم كما أفكر فى نفسى ونفسك ، ويأخذنى القلق من جراء ما سيحدث فى المستقبل ، فيدركنى الخوف والاضطراب . لقد أزعجتنى الوحدة واستوحشت منى السعادة ، وحرمتُ فيها أعمل وجثم خيال الموت يهددنى فلا أستطيع منه خلاصاً ، وأرانى بغيرك تعيسة شقية . انظر كيف أعجز عن التعبير عما أريد اخبارك به . أريد أن أراك إثر تلاوتك هذه الرسالة وعقب فراغك من مراسيم الحزن . إن سعادتى فى قربك ؛ وليس لى فى الدنيا أنيسٌ سواك يا كريم الطباع ، وأخا النجدة والغوث . ولست بناسية ما حييت عطفك وحدبك . إنى لتأخذنى الدهشة كيف تنزلت من عليائك فحببتنى لطفك وأنسك مع ما أنا عليه من كآبة وغباء كانا سبباً فى ضعف حبك لى . أليس كذلك ؟ »

تأثر هتن من كتابها تأثيراً ألبسه ثوباً من الحياء والرحمة ، واستكثر من نفسه أن يمدحه أو يعبده كائن ما . يا لله .. ! لقد أغرى دوريس فوقعت فى حبائله ... إنها طرفة من طرف اللعب الجنونى ! ! بل طرفة من الجهل لا يستطاع وصفها !

فرغ « هتن » من قراءة كتاب دوريس ، فإذا الجزع أقوى فى نفسه من السرور . لقد خلا عمله من الحكمة وسداد الرأى

وكثيراً ما كانت تسيطر عليه رغبات وشهوات مبهمة يكاد يخضع لها ، وإذ ذاك يذكر نفسه في تأنيب أنه على وشك العودة مرة أخرى إلى غبائه القديم ، ويذكرها أيضاً بوجود كثيرات أمثال « ماجى » خادمة زوجته ، وأزبث ، ومسز برنجيل ، وغيرهن من الوصيفات فى لندن وغيرها ؛ غير أنهن جميعاً — وا أسفاه — قد أدركهن الكبر ، ووسمهن الهزال بميسمه . ومن يدرى فلربما يأتى عليه وقت يدركه ما أدركهن ، بيد أن كل هذه التجارب لم تؤثر فيه شيئاً

عاد هتن فتذكر « دوريس » المسكينة ، وكأن نفسه ضجت من تلك الخدائع التي يموّه بها على النساء ، وعافت الخديعة باسم الحب والهوى ، فعزم على أن يكتب إليها كتابة ملؤها العطف والرحمة ، دون أن يعدها بالحضور ، ولكن الخادم قطع عليه سلسلة تفكيره ، إذ جاء يخبره بأنه قد أسرج الحصان ، فنهض وركب وذهب مع رئيس عماله الذى كانت أمارات الكآبة متجلية على محياه ذلك اليوم

مرت خمسة أيام شوهد إثرها « هتن » ودوريس جالسين على مقعد حجرى فى « سوث إند » وكانت دوريس ترتدى قميصاً حريرياً مطرّزاً بأشرطة حمراء يعلو وجهها البشر والسرور ؛ وكانت رِجْلاَ هتن ممتدتين إلى الخارج ، معتمدتين على كرسى ، وقد أزاح القبعة إلى الخلف ... وفى تلك الليلة بينما كانت دوريس نائمة بجواره ناعمة بالدفء والراحة وقد سرت أنفاسهما هادئة تهوّم فوقهما كأنها تحرسهما ، إذ تملكه فى هذه الساعة — ساعة الظلمة والتعب — ذلك الوازع الذى تملكه من نصف شهر تقريباً ، حينما أخذ على نفسه ما لم ينفذه ، وما ذهب كما ذهب أخ له من قبل ، وهكذا تغلب الشر على الخير ، والجهل على العقل ، إذ خارت عزيمته عن تنفيذ أول خطوة من المبدأ الذى رسمه لنفسه

قضى هتن فترة طويلة من الوقت مغمضاً عينيه كالنائم يعالج خنوعه أمام داعى الخيبة حتى تحركت دوريس فى فراشها فالتفت إليها ، وقد تسرب من خلال الستارة الرقيقة الشفافة نور خفيف أظهر ذراعها العارية البضة وكتفها الجميل ، ورقبتها وجدائل شعرها الحالكة السواد ملقاة على الوسادة ، فتجلى فيها مثال من الجمال العبقرى خليق أن يشتهى ، وتراءى جمالها الساحر يغرى ظمأه ، فعلام يشكو هتن ، وقد رقدت بجانبه تلك الفتنة ؟ وما الذى تفيده وقد ضاع الأمل فى أن يكفكف من حدّة مجونه ، أليس الأولى أن يستفيد من ضياع ميثاقه وعهده ؟

وإذ ذاك تسربت إلى نفسه فكرة براقة يحدوها الشباب الجامح ، فكرة لا تأبه بالعواقب ، ملأت عليه جميع أرجاء نفسه ، وخيلت إليه أنه حرٌّ يفعل ما يشاء

وفى لحظة أسلم فيها قياده للشباب جذب الفتاة نحوه ليروى نفسه من نبع ذلك الجمال ، فانتبهت « دوريس » مذعورة ، وأفاقت على سيل قبلاته الحارّة التى أودع فيها روحه الفتية وعواطفه الملتهبة !!

تحولت عاصفة رغبته إلى نوع من المرح ، وكأن الجو والعالم وكل شىء كان يشاركه فى ضحكه الهادئ !

تلقت أذنا هتن سؤالاً عذباً من دنيا الحب النائية يسأله :

— ترى هل أحبك شخص مثل حبى إياك ؟

— أظن أن هناك من سألنى هذا السؤال قبلك !

— ومن ذاك ؟ أخبرنى ! ومن تعنيه بقولك ؟

وكان الصوت صوت (دوريس) وقد اختلجت نبراته بالغضب ، فقال هتن متنهداً :

— آه !

— من ذاك ؟ أخبرنى !

— لا تذهبى بعيداً مع الظنون ... هى جانيت اسبنس

— (فى دهشة) جانيت اسبنس ؟ تلك المرأة العجوز ؟ يا للعار !

فضحك منها هتن بملء فيه ثم قال :

— إن ما أقوله هو الحق ، وإنها لتحبنى حبًّا جمًّا

وأكد لدوريس أن لا بد له من أن يزورها وأضاف إلى ذلك قوله :

— وأعتقد أنها تبغى الاقتران بى !!

— لكنى لا أراك فاعلاً ولا عازماً !

فعاد هتن إلى الضحك وقال وقد خيل إليه أنه يقول أحسن نكتة قالها :

— أود أن تكونى زوجتى !

ولم يغادر « هتن » فندق « سوت إند » حتى كان قد تزوج مرة أخرى ، لكنهما اتفقا على أن يكون أمر هذا الزواج سرًّا حتى إذا حلّ الخريف وذهبا إلى الخارج ، شاع الأمر بين الناس ثم أردف ذلك بقوله :

— أما الآن فسأذهب إلى منزلى كما تمضين أنت إلى منزلك

* * *

وفى مساء اليوم التالى مضى هتن لزيارة جانييت اسبنس فاستقبلته ببسمتها القديمة بسمة الجيوكوندا ثم قالت :

— لقد كنت متعطشة إلى لقائك

وما كنت لأستطيع الصبر عن لقائك

ثم جلسا فى البيت الصيفى الجميل الذى كان فيما مضى معبداً قائماً وسط أحراج كثيفة خضراء فقال هتن يجاذبها أطراف الحديث :

— لقد عزمت أن أسافر إلى إيطاليا هذا الخريف

فقالت جانييت ، وقد أغمضت عينيها فى إغراء كأنها فى نشوة الخمر وقالت :

— إيطاليا ! إيطاليا ! لقد وافق عزمك ما جمعتُ عليه نيتى

— ولماذا تريدين الذهاب ؟

— مالى غرض خاص ، إنما قد يفقد المرء نشاطه أحياناً إذا أراد السفر إلى الخارج وحده لأول مرة

— أف للوحدة ! ليس فى سفر الانسان مفرداً أية لذة

واضطجعت جانييت فى مقعدها صامتة ، مسبلة الأجفان ، وأخذ (هتن) يمسح شاربه ، وطال الصمت بينهما ، وحان وقت الغداء ، ودُعِىَ هتن إلى تناوله فلبى على عجل ، وابتدأ حبل المزاح يزداد قوة بينهما ، ووضعت المائدة فى الشرفة ، وأخذا يطلان من خلال أقواسها على الحديقة الممتدة إلى الوادى المنخفض والتلال البعيدة ، ثم فاض النور ، وعمّ السكون ، واشتدّت الحرارة وحلّقت غمامة فى الأفق ، وهدرت أصوات الرعد من بُعد وهى آخذة فى الاقتراب ، وعب عباب الريح ، وتكاثف الرذاذ المتساقط منبئاً بالمطر وأخذت العتمة تغمر الكون ، وإذ ذاك صمت كل من جانييت وهتن ، ولكنها قطعت هذا الصمت بقولها :

— أظن أن لكل امرىء حقاً محدوداً من السعادة ؟ أليس كذلك ؟

— لا شك فى هذا ، لكن ما الغاية التى تقفو أثرها ؟ ليس فى استطاعة أحد أن يدلى بآراء قاطعة عن الحياة ، إلا إذا أراد أن يتكلم عن نفسه ، أما السعادة ...

ثم توقف عن الكلام فجأة ، إذ عاد بفكره إلى

سابق حياته يستعرضها ، ورأى تلك اللحظات التي كانت مفعمة بالسعادة والهدوء الذى لم يكن ينغصه عليه سوى سحاب جهام من الأحزان لا يلبث أن يتلاشى ... لقد كانت الأموال شيئاً عادياً . لقد كان أسعد حظاً من غيره من بنى جنسه . أما الآن فقدْ فقدَ السعادة فحسب ، وعرف أن عدم الاكتراث سر الابتهاج . وكان فى نيته أن يقول شيئاً عن سعادته لولا أن قاطعته جانييت بقولها :

— إن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما من حياتهما

— أمثلى أنا ؟

— آه يا هنرى المسكين ! إن القدر لم يعامل أحداً منا بما يرضيه

— ها أنت ذا مسرورة وذلك من شجاعتك ، لكن لا تظنى أنى لا أستشف ما وراء القناع

ثم تكلمت جانييت اسبنس بصوت أخذ يزداد ارتفاعاً كلما ازداد المطر انهماراً ، كما أخذ الرعد يتقطع فى فترات بين حديثها فقال لها هنرى :

— لقد عرفتك جيداً منذ زمن طويل

إذ ذاك طافت بها بارقة من الأمل المعسول ، فاذا بنفسها قد امتلأت بالأفكار وحفزها العزم على أن تقول شيئاً ، وقد اتكأت بصدرها عليه وحدقت عيناها ، كأنهما رصاصتان ثم طواها الظلام فى غمراته فقالت :

لقد أصبحت وحيداً تفتش لك عن رفيق ، وإنى خليقة بالشفقة عليك فى وحدتك ، بل فى زواجك ...

ولكن الرعد قطع عليها حديثها ، ثم عاد صوتها إلى الظهور مرة أخرى بهذه الكلمات :

— إنك فى حاجة إلى رفيقة

فردّد قائلاً : رفيقة لى ؟ ما أبعد ذلك عن الدعابة ! چورچيت لبلان رفيقة «موريس ماترلنك» السابقة ...

على هذا النحو صورته جانييت اسبنس فى خيالها أى أنه رفيق الروح . أما دوريس فقد مثلته برمز الكمال وأنه أكثر الناس مهارة ، ثم قالت جانييت وقد اعتمدت بيديها على ركبتيه :

— لقد طار إليك قلبى مرفرفاً وفى وسعى أن أعرف السبب ؛ لقد أصبحت وحيدة مثلك ، فما أصبرك ؟ !

ثم مرت عليها بارقة أخرى فإذا بها مضطربة النفس إلى درجة ألجأتها إلى أن تقول :

— ما أراك تشتكى وأغلب ظنى أنك تشكو !

— ما أعجب أمرك !

زمجر الرعد ثانية ، وانهمر المطر فى شدة كأنه قهقهة المجنون فقالت جانييت :

— أما تحس فى أعماق نفسك بشىء له صلة ما بتلك العاصفة ؟

ثم اتكأت على صدره بجسمها اللدن وتابعت حديثها قائلة :

— إن الهوى يصيّر الإنسان أشبه بالعناصر الفعالة ...

فلم يحر جواباً وظل كالمشدوه ثم قال : نعم !

ثم استولى عليه الخوف على غرّته ، وتحوّل ما فيه من جرأة إلى سكون وذهول . لقد أرعبته جرأتها وصراحتها المتناهية ، أما هو فقد قال :

— الميل والهوى ؟ إننى لا أخلو منهما

بيد أنها تصنعت عدم الإصغاء إلى حديثه ،

وأخذت تثرثر فى الحديث الذى لم يكن يسمعه أحد إلا وهو يعتقد أن الحب العنيف هو الذى ينطقها ثم همست قائلة :

— لعله لم يفهم مغزى ما أقول !

ومن ثم أخذت تسرد على مسامعه قصة حياتها فى هدوء حتى يستطيع أن يفهم ما تقول ، وفى هذه الحال أخذت فترات انقطاع البرق تطول ، وتزداد تبعاً لذلك مدة الظلام ، غير أنه كان يراها تحملق فيه بقوة متجهة بصدرها إليه مما يدعو إلى الريبة ويطل من عينيها بريق التمنى والإغراء ، وانهمر المطر أكثر من ذى قبل فالتصقت به . وأبرق البرق فرأى « هتن » وجهها يعلوه قناع جميل تترجرج من تحته عينان واسعتان ، وفم صغير جميل ، وحاجبان عريضان ، فكانت أشبه بالرومانيات ، ولكن ما أشبهها بجورج روبى !

عرف هتن حينذاك ما ترمى إليه فأراد أن ينقذ نفسه منها ، وفكر فى مهرب يتخلص به من هذا المأزق الحرج . أيدعى أنه رأى لصاً ثم يناديه أن قف ويقفز ويعدو خلف شبحه الموهوم ؟ أم يدعى أنه أصيب بخفقان فى قلبه ؟ أم يدعى أنه لمح شبحاً وليكن شبح إميلى فى الحديقة يخطر فى حلوكة الليل ؟ وشغله التفكير فى هذه الأمور الصبيانية عن الالتفات إلى جانييت وحديثها ولم يرده إلى عالم الحقيقة إلا مسة رقيقة من يدها ، ثم قالت :

— إنى أجلك من أجل ذلك يا هتن

فقال فى سريرته : ومن أجل أى شىء تجلينى ؟

فقالت : إن الزواج رباط مقدس ، واحترامك إياه — برغم سوء حياتك الزوجية السابقة — يجعلنى أحترمك وأعجب بك . والآن أتسمح لى أن أقول كلمة ياهتن ؟

وعاد هنرى يفكر فى مسألة اللص الموهوم والشبح ، ولكنه وجد أن ذلك قد تأخر وقته ، فعادت هى تتابع قولها :

— نعم ، كلمة واحدة ، تلك هي إننى «أحبك» وها نحن الآن فى أتم الحرية !

— وما شأن هذه الحرية ؟

وحدثت حركة فى الظلام ، فاذا بجانييت تخر راكعة بجانب كرسيه ثم تقول :

— لقد استوحشت منى السعادة أنا الأخرى يا هنرى !

وإذا بها تعانقه فى لهفة ، وإذا به يحس من حركاتها أنها تتنهد ، فأحس بالحرارة تسرى فى جسده ، وخيل إليه أنه لولا بقية من الخجل لصاحت : « الرحمة » ، وتصنع الجد ، فقال :

— عليك أن تمتنعى عن هذا ياجانييت ، فليس هذا وقته . فلتهدأ عواطفك ، ولتمضى إلى فراشك

ثم أخذ يربت بيده على كتفها ، وتخلص من بين يديها ، وتركها جاثمة على الأرض تندب حظها بجانب الكرسى الذي كان جالساً عليه . فأخذ يتحسس طريقه وسط البهو ، غير متذكر قبعته التى خلفها ، ثم غادر المنزل معملا فكره فى أن يقفل الباب الخارجى دون حدوث أى صوت . كانت السماء إذ ذاك قد انجلى عنها الغمام ؛ غير أن الطريق كان مترعاً بالماء ؛ وكان يرن فى هذا السكون صوت المياه المتدفقة من الميازيب ، والمنحدرة إلى الحفر ، فأخذت قدما هنرى تترديان فى تلك البرك التى لم يأبه لها

أما جانيت فما كان أشد بلواها ! لقد كانت الحسرة تطل من عينيها ، ويجثم الأسى على أنفاسها . لقد فكرت فى أن تنتقم لنفسها ، وويل للرجل إذا فكرت المرأة فى الانتقام منه !

* * *

لنرجع إلى ماقالته جانيت بشأن الهوى والميل . لم يكن هذا سوى قصة قديمة منبوذة ، ولكنها كانت حقيقة ملموسة . لقد كانت أشبه بسحابة سوداء مشحونة برعود الكهرباء ، أما هو فكان أشبه ببنيامين فرانكلين إذ أرسل طيارته إلى صدر ذلك الوعيد ، ثم هاهو ذا الآن يشكو ، وقد نجحت ألعوبته

كل ذلك وما زالت المسكينة خاشعة قابعة بجانب المقعد . تُرى ما الذى أزعجه ؟ ولم لم يتابع مداعبته ؟ لماذا تخلى عنه « عدم الاكتراث » وما الذى رده عاقلا في طرفة عين ؟ يتحمل زمهرير الجو بلا ضجر ولا تأفف ؟ أما هو فلم يكن ليعرف لهذه الأسئلة من جواب ، ولم يعد يرى فى فكره سوى فكرة الفرار ، وكان تنفيذها شاغله الوحيد

— ٤ —

سألت دوريس هتن قائلة :

— ما الذي يشغلك ؟

— لا شيء !

ثم ساد سكون ظل خلاله هتن لا يتحرك ، متكئاً برفقة على سياج الردهة ومعتمداً بذقنه على يده ، ومطلا ببصره يشاهد فلورنسا التى اختار فيها سكنه على رابية فى جنوبها يستطيع المرء منها أن يسرح طرفه فى واد خصب يمتد في المدينة حتى يصل جبال « مورلو » الباردة ، ثم يمتد شرقيها إلى تلال « فيزول » الآهلة بالسكان ، ذات المنازل البيضاء ، حيث يبدو كل شيء واضحاً نيراً فى ضياء شمس سبتمبر

سألته دوريس قائلة : أثم ما يشغل بالك من أمر جدّى يا هتن ؟

— شكراً لكِ ، لا يهمنى شيء !

— أفصح وأخبرنى

— ليس عندى ما أخبرك به ياعزيزتى

ثم استدار ناحيتها مبتسماً وأخذ يربت على كتفها قائلا :

— أولى بك أن تأوى إلى فراشك فإنى أخاف عليك حرّ هذا المكان

— حسن ما تقول ، ولكن هلا تذهب أنت أيضاً إلى الفراش ؟

— حينما أفرغ من مضغ هذه اللفافة

— لك ما شئت ، ولكن أرجو أن تسرع

ثم أخذت تنحدر من على الدرج ببطء وتراخ واتجهت إلى الداخل . وهكذا ظل هتن وحده يتأمل جمال فلورنسا شاكراً للظروف تلك الوحدة التى كان يتمناها للخلاص من دوريس ورغبات هواها الجامح ، التى لا تعرف حداً ولا شبعاً . لم يذق « هتن » حتى هذه الساعة آلام الحبّ وطاغوته ، ولكنه يجرّب آلام المحبوب المطلوب ، وبذلك كانت هذه الأسابيع الأخيرة فترة المتاعب ، حيث

ظلت «دوريس» ملازمة له كالرقيب ، لذلك ما كان أعظم فرحه بالوحدة الهادئة

انتزع هتن من جيبه رسالة وفضها على مضض ، فقد أصبح يمقت الخطابات لما تحويه دائماً من أخبار غير سارة ، خصوصاً عقب زواجه الثانى . كان هذا الخطاب من لدن أخته ، فأخذ يرغى ويزبد عند تلاوته وقراءة مثل هذه العبارات « بسرعة ، الظالمة الطائشة ، الانتحار الاجتماعى — شديدة البرد فى قبرها — شخص من الطبقة الدنيا » كل ذلك كان يأتيه تباعاً فى كل رسالة يرسلها إليه قريب صادق النصيحة والود ، صافى التفكير . أحرجت هذه الكلمات صدره حتى كاد يهم بتمزيق الرسالة لولا عبارة لمحها فى ذيل الصفحة الثالثة ، اضطرب قلبه عند قراءتها إذ كانت مزعجة مثيرة للنفس الهادئة وهى أن جانييت أخذت تطوف على كل إنسان تخبره أن هتن قد دسّ السم لزوجته إميلى حتى يخلو له الجو ، فيبنى بدوريس . فما أشنع هذا الحقد من رجل متواضع لطيف الأخلاق كما كان يدل عليه مظهره . ومن أجل ذلك غدت نفس هتن كالمرجل من الغيظ فشرع يتسلى بذكر الأسماء وسبّ تلك المرأة

وفجأة رأى سخرية موقفه فقال على حدة : « لو علم الناس مبلغ ما تحملت وما آل إليه أمرى من البؤس لما صدّق أحد فكرة دسّ السم لزوجتى لأحظى بدوريس . ولكن ما الذى نالته من ذلك جانييت العزيزة المسكينة . لقد أرادت أن تلبس ثوب الحقد فلم تفز إلا بثوب الغباء ! »

أفاق هتن من أفكاره المتشعبة على وقع أقدام ، فالتفت حوله فإذا بالخادمة فى الحديقة تقطف بعض الفاكهة ، وكانت شابة من نابلى شرد عقلها فأخذت طريقها نحو الشمال حتى وصلت فلورنسا . ويلوح عليها أنها من الطبقة المتعلمة وإن فسدت أخلاقها كما تدل سحنتها على أنها من الطابع الصقلى ، وقد ارتسمت على وجهها دلائل الغباء ، وليس بها من أثر للجمال ، إلا دلائل الشراسة المرذولة ؛ وتحت ثيابها السوداء الكثيفة تكهن هتن بوجود جسم قوى ممتلئ ثابت ، فأخذ ينظر إليها فى دهشة وريبة ، ثم تحولت تلك الدهشة إلى رغبة ، ثم أصبح ذكرها لديه كشعر ثيوكريتوس القصصى حتى قال عنها : « هكذا تكون المرأة » غير أنه تأسف أن لم يكن من طبعه مناداتها ، وقد أصبح يعجب بها ، ولكنه صاح بها :

— أرميدا ! !

فأجابته بسمة جذابة أكدت ما وراءها من معنى ، فأدرك هتن الخوف من الوقوع مرة أخرى فى الهاوية ، فرأى من الخير أن يتراجع بسرعة قبل أن يتردّى فى الحفرة ، بيد أن الفتاة لم تزل تنظر إليه نظرات مبهمة ، ثم نادته قائلة :

— ها ! شيناتو ! !

فتعجب هتن ثم قال على حدة : أعقل أم غباوة ؟ لا رجحان لواحد منهما الآن . على أن الغباء لم يزل واضحاً ملموساً ! » ثم أجابها فى صوت مرتفع قائلاً :

— اسكندو !

ثم أخذ يَعُدُّ السلالم الموصلة من الربوة إلى الحديقة وهى نازلة بقوله : « إلى تحت .. إلى تحت .. إلى تحت ... » حتى أتى على الاثنتى عشرة درجة ،

وهكذا رأى هتن نفسه يخرج من غمّ إلى غم ومن ظلمة مملوءة بريح وبرد إلى هاوية مملوءة بوحل التفكير .

— ٥ —

شغلت قصة هتن الصفحة الأولى من الجرائد عدة أيام حتى بلغت من الشهرة مبلغاً لم تصل إليه قصة أخرى منذ أن غطى « جورج سمث » على حوادث الحرب الأوربية لإغراقه عروسه السابقة فى حمام ساخن . ولقد كان من جرّاء ذلك أن ثارت ضحكات الجمهور من أجل قصة قتل ظهرت فى الوجود بعد أشهر من وقوع الجريمة . وهنا يتجلى الشعور بأن هذه الحادثة جديرة بالاهتمام فى تاريخ الإنسانية لندرتها ، ولأنها تفصح عن تصاريف القدر فى تحريك أعنّة البشر . كان أسلوب القصة يقول إن رجلاً خبيثاً حركه هوى فاسد ، فقتل زوجته وقد قضى شهراً ملوثا بالجريمة تحت ثياب البراءة المزعومة ، لا لينجو ، بل ليقع أخيراً على أبشع صورة فى الحفرة التى أعدها لغيره . وها هى ذى الجريمة يتكشف عنها الستار ، ويماط عنها اللثام . وها هى ذى القضية تعلن ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون بكل يقظة ما تجرى به يد القدر فى هذه الحادثة الغريبة

كانت هناك إشاعة مبهمة لكنها جديرة بالعناية رددتها أفواه جيرانه وقام البوليس أخيراً بضبط الحادث وإجراء اللازم ، كما أخذت ظروف القضية ترتيبها فى التحقيق ، ثم التحرى ، ثم شهادة الخبراء فالمرافعة فالحكم ، كأنها قصة روائية ، وقد استغلت الجرائد هذه الفرصة واتخذتها مادة لغذاء تغذى به قراءها مدة طويلة

كانت حالة هتن حينما دعى من إيطاليا للاستجواب أمام هيئة التحقيق حالة غضب ، وما كان أعظم شأن تلك الفرية المزعجة التى أدت إلى القبض عليه كأنه مجرم عاطل ، واعتزم إذا ما انتهى التحقيق — وكان واثقاً من براءته — أن يقدم دعوى أمام النائب العام طالباً الحكم على جانييت بأشد العقوبة جزاء لها على تلك الحادثة الكاذبة

بدئ التحقيق وأطلت الدلائل القوية ضده برأسها ، وبحث الخبراء الجثة فوجدوها مسممة بالزرنيخ ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون كل لفظة مما تحويه الحادثة ، كما كان القرار الأخير للخبراء أنها ماتت بالسم

بهت هتن لسماع هذا القرار وتعجب كيف ماتت زوجته على هذه الحال . بل ما كان أشد دهشته حينما علم أن هناك مستحضرات ممزوجة بهذا السم فى البيت تكفى لقتل جيش

علم هتن على أثر ذلك أن هناك مكيدة دبرت ضده ، وأنها آخذة فى التعاظم كنبات من نباتات المنطقة الحارة ، ثم أخذت تشتمل وتضيق عليه حتى خيل إليه أنه سيهلك فى غابة ملتفة . وبعد فحص حالة التسمم قرر الخبراء أنها تناولته قبيل الموت بثمانى أو تسع ساعات (أى حالما مضى هتن ليحضر الدواء وحينما أفرغت جانييت القهوة) لذلك وجهت جانييت هذا السؤال إلى الخبراء :

— أتقصدون وقت الغذاء ؟

— أجل !

فاستدعت كلارا ثم قالت جانيت

— إن إميلى كما أذكر طلبت من (كلارا) أن تحضر لها الدواء فتطوع هتن لاحضاره بدل الخادمة وأكدت الخادمة قول سيدتها فعادت مس اسبنس تقول :

— وفضلا عن ذلك لم يحضر الدواء فى زجاجته بل أحضره فى زجاجة خمر .

أثر ذلك القول فى نفس هتن فضاع غضبه وأنزله عن عرش كبريائه خوفاً وفزعاً ، وغلب على ظنه أن من السخرية أن يؤخذ هذا القول كله على سبيل الجد ، وأن يصبح حلم الليل حقيقة ، بل قد أصبح فى حكم الواقع ثبوته ، ولم لا يكون ذلك وقد رآها السائق « ناب » غالباً معاً ، بل قد ساق العربة يوم ماتت إميلى ، بل قد رآها يتبادلان العتاب

أجل التحقيق . وفى مساء ذلك اليوم ذهبت دوريس تشكو صداعاً ، ولما ذهب هتن إلى غرفتها بعد الغداء وجدها تصيح فجلس بجوارها على السرير ثم سألها قائلاً :

— ما الذي ألم بك يا عزيزتى ؟

ثم أخذ يداعب خصلات شعرها بيده ، غير أنها لبثت وقتاً طويلاً دون أن تجيبه ، فمال عليها وقبلها فى كتفها العارى ، بيد أنه كان مهموماً بما شغل باله فأخذ يقول على حدة : « ماذا تم ، وكيف انقلب الهذر والفضول إلى حقيقة . كيف ماتت إميلى مسممة بالزرنيخ ؟ ما أقبح ذلك وأبعده عن الامكان ؟ لقد انحرفت نظم الحياة ! » وطفق يستدر الرحمة من الطيش وعدم الاكتراث ثم يقول : « ماالذى حدث وماذا سيحدث ؟ » وسمع صوتاً قطع عليه سلسلة تفكيره وحديثه النفسانى . تأوهت دوريس فجأة وهى تقول :

— إنها خطيئتى ... إنها خطيئتي ... ليتنى لم أحبك ولم أسمح لك بحبي بل ليتنى لم أخلق

لم ينبس هتن ببنت شفة لكنه أخذ ينظر في سكون إلى ذلك الجسد الرطب المتمدد على الفراش ، ثم قالت دوريس :

— لأقتلن نفسى إن أصابك شيء ما !

ثم اعتدلت فى جلستها وأخذت يديه في راحتيها ونظرت إليه نظرات شاردة كأنها نظرات الوداع ثم قالت :

— إنى أحبك ! إنى أحبك ! إنى أحبك !

وجذبته إليها وهو مستسلم لا يتحرك ، وعانقته ثم دفعت نفسها إليه فى قوة ، وقالت :

— آه يا هتن ! لا أظننى أحببتك مثلما أحبك الآن فما العلة ؟

تخلص هتن من عناقها ونهض قائماً محمر الوجه قائلاً :

— كأنك تصدقين أنى قتلت زوجتى ، إن ذلك لمضحك حقاً ، فأى صورة تتمثلها الأذهان جميعاً لشخصى ؟ أتظنوننى بطلا من أبطال السينما ؟

ومنذ ذلك الوقت بدأ هتن يشعر بفقد اعتداله الخلقى وتحول حنقه وخوفه وارتباكه إلى غضب شديد عليها وقال :

— ما أقبح ما أنتن عليه من غباوة مرذولة ! أما عندكن إحساس بما يلائم عقلية الرجل المتمدن ؟ أما من سبيل إلى ذلك ؟ لعلك تظنين أنى قد جننت بحبك جنوناً يحملنى على ارتكاب أية

جريمة ؟ متى يجوز فى عقولكن أيتها النساء أن المرء لا يذهب فى حبكن مذهب الجنون ؟ كل ما يبحث عنه الإنسان هو الحياة الهادئة التى لا تسمح لأحد ببلوغها . ثمن لى بمعرفة ذلك الشيطان الذى قادنى إلى زواجك الذى لا أحسبه إلا ضرباً من الغباء . ثم أراك الآن تحومين حولى قائلة إننى القاتل . مالى على حمل ذلك صبر ولا جلد »

ثم انطلق نحو الباب مطلقاً لسانه بكلمات مزعجة ما كان له أن يتسرع بالتلفظ بها كما يعلم ، لكنه لم يتمالك نفسه ، ثم أغلق الباب بشدة خلفه

سمع هتن عند إغلاقه الباب صوتاً يناديه ، فعرف فى الصوت « دوريس » زوجته وسمع صوتها تتخلله نبرات الحزن والأسى ، فهل يا ترى يرجع إليها ؟ نعم حق عليه أن يرجع . وما إن مس مقبض الباب بيده حتى تغير رأيه ونزع يده بشدة وانصرف لسبيله ، ولما نزل إلى منتصف السلم توقف ودار بخاطره أن ربما أقدمت دوريس على مالا تحمد عقباه ، فتلقى بنفسها من النافذة ، أو شىء من هذا القبيل ، فأصغى باهتمام فلم يسمع صوتاً ، لكن كثر حدسه وتخمينه ، فتصورها وقد رفعت مصراع الشباك ، ثم إذا بها تطل فى هواء الليل البارد بينما يتساقط رذاذ قليل ... كانت الردهة المرصوفة تقع تحت هذه النافذة على بعد خمس وعشرين أو ثلاثين قدماً ، وفى أثناء سيره فى شارع « پيكادلى » قفز كلب فجأة من شباك فى الطابق الثالث من عمارة « رتز » رآه هتن وهو يقفز وسمعه وهو يرتطم بالأرض ، فتذكر دوريس وخشى أن يكون هذا نذيراً سيئاً ، أو أن تكون قد ألقت بنفسها ، فجمع العزم على أن يرجع إليها مهما كلفه ذلك من نزوله عن كبريائه . ولقد كان يستعجل الخطى ليراها ، فلما دخل البيت وقف متردداً يفكر فى ألفاظه التى فاه بها أمامها مخافة أن يكون قد جرح شعورها ، أو آلمها ؛ وشعر بالندم يحز فى نفسه ، ويهيمن على إحساسه

دفع الباب ودخل الحجرة فوجدها مستلقية على الفراش مهمومة ، فما رأته حتى تبسمت بسمة تمثلت فيها دلائل الإخلاص والحب الذى ينطوى عليه فؤادها له ، وما تشعر به نحوه من عطف ، فأقبل يداعبها ويستسمحها عما بدر منه

* * *

أخذت قضية مستر هتن دوراً خطيراً ، وأجمع الخبراء والأطباء رأيهم على أنها ماتت مسممة بالزرنيخ كما اجتمعت القرائن والدلائل على أن مستر هتن هو الذى دس لها السم ليتخلص منها ويتزوج دوريس . وكان العامل الأكبر فى إثبات التهمة عليه هو حبيبته السابقة جانييت اسبنس التى دبت الغيرة فى قلبها حينما تخلى عنها وتزوج دوريس ، فدبرت هذه المكيدة ، على حين كانت تريد هى أن تكون زوجته ، وكاد أملها أن يتجمع فى الاقتران به ، ولكنه تركها إلى دوريس ، فلا جرم أن أحست بالغيرة تقطع أوصالها فدبرت ما دبرت

وفى ليلة الحكم عادت جانييت اسبنس إلى منزلها وهى لا تدرى أيسرها هذا أم يسوؤها ، فنامت على أسوأ حال من سوء الهضم ، وأخذ الطبيب لبارد يتردد كل يوم لعيادتها ، أما هى فقد كانت تخوض معه فى الحديث حول قضية مستر « هتن » الذى

كان زواجه سبباً فى إغلاء مراجل حقدها ، حتى أنها كانت تقول للدكتور « لبارد » فى دهشة تتجلى فى عينيها :

أليس من العار أن تذكر أن شخصاً كان يُؤوى قاتلا فى بيته ؟ أليس فوق التصور أن يظل الانسان جاهلا حقيقة أخلاق إنسان آخر زمناً طويلا ؟

هكذا كانت تقول للدكتور لبارد بينما كانت هى التى دست السم لإميلى وقادتها الغيرة العمياء لأن تزج بهتن أمام ساحة القضاء لتلوث سمعته وشرفه ، ولكنها كانت تعشقه . وقالت :

— ها هى الفتاة التى فرّ بها من طبقة وضيعة لا تزيد على كونها أمةً مباعة . وها هى ذى الأخبار ترِدُ بأن زوجته الثانية تستقبل طفلا جديداً سيكون يتيما ، إذ يولد بعد موت هذا الوالد الأثيم

وكان هذا الطفل يحرج صدرها ويؤذيها وكان الطبيب لبارد ينصت إلى كل ذلك صامتاً ، ولكنه فى آخر مرة زارها وبعد أن سمع ما قالت ، أمسك بيده القلم ، وكتب لها اسم دواء

وفى ذلك الصباح قاطعها أثناء حديثها الذى تعود أن يسمعه من سباب ثم قال لها بلهجته الحزينة وصوته المنخفض

— على كل حال فإنى أفرض أنك التى دسست السم لزوجة هتن ؟

فحدجته جانيت برهة بعينين متقدتين ثم قالت بلطف :

— أجل فعلت ذلك !

— وربما كان ذلك فى القهوة ؟

فأشارت إليه بالإيجاب

وحينذاك تناول الطبيب القلم ، وبمهارة وحذق ورزانة كتب لها تذكرة طبية باسم دواء منوم

مس مبنى

كتاب صحى مجاناً

الآلة البشرية وما يجب أن تعرفه عنها . العقل والجسد . العقل الباطن . الغدد . أسباب الأمراض العلاج بالمقاقير . التربية البدنية . الطب الطبيعى . التحليل النفسى . الأمراض المزمنة والعيوب الجسمية والاضطرابات العقلية وأعراضها وعلاجها . النحافة . السمنة . قصر القامة . ضعف الصدر . اعوجاج الأرجل والظهر . الكساح . ضعف الأعصاب . الروماتزم . سقوط الشعر . تجمدات الوجه . الربو . الامساك . الأرق . الخجل . الوهم الوسوسة .

١٠٠ صفحة مصورة ترسل إليك بدون أى مسئولية ولا مقابل وسوف تكون بداية حياة جديدة بالنسبة لك . أطلب نسختك اليوم الآن بالكتابة أو بالتليفون رقم ٤٤٩٠٣ أو بالحضور من

محمد فائق الجوهرى

أخصائى فى التربية البدنية والطب الطبيعي وعلم النفس

العيادة ٢٨ شارع فؤاد الأول من ١٠ — ١٢ ومن ٦ — ٨

تليفون ٤٤٩٠٣ أو ٥٠٣٥٩

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾